قصة من الحياة

قلوب من حجر

للاستاذ يوسف يعقوب حداد

كان اسمه (محمود[1]) ولكن الناس ينادونه (أبوشوارب)! ولعل الناس على حق ؛ فهم لا يدعونه بمحمود لأنه في الحقيقة لم يكن محمود الصفات . وكانوا ينادونه (أبوشوارب) لأن خمسة عشر سنتمتراً من الشعر الأسود الكثيف كانت تغطي أعلى شفتيه !

ولو أردت نموذجاً ، صادق التعبير ، لصورة مجرم خطر ، لما ترددت في أن أقدم إليك محموداً ، فهو بعينيه الواسعتين ، وشاربيه الطويلين ، وأنفه الذي يشبه منقار الديك ، وشعر رأسه الكث ، الطويل ، ليبدو لك كما يبدو المجرم الخطر في فيلم من الأفلام المصرية

وفوق ذلك كان يشتغل بالتهريب . وهو عريق في مهنته ، يعرف كيف يضلل رجال الكمارك ويفلت من شباكهم ، فكان ربحه كثيراً ، ولكن مال الحرام للحرام — كما يقولون — فبقدر ما كان (أبو شوارب) يربح من طريق الحرام ، كان ينفق من ربحه على الحرام أيضاً ، حتى لم تبق في المدينة راقصة أو بائعة جسد الا ذاقت لذة دنانيره الدسمة !

والمصيبة أنه كان متزوجاً ، وله من زوجه ثلاثة أولاداً كبرهم في العاشرة ، وأصغرهم في ربيعه الأول ... ولكنه والله لم يكن يدري انه زوج لامرأة ، وأب لثلاثة أولاد ، اللهم إلا ساعة واحدة في كل أربع وعشرين ساعة ! . . فهو في النهار يمارس مهنته في الخارج . وربما في خارج البلد ، وفي المساء يقصد الملاهي والحانات ينشد المتعة بين كؤوس الخمر وأحضان الراقصات ، فاذا عاد إلى بيته في ساعة متأخرة من الليل ، عاد ثملاً ، فاقد الوعي . فيرمي بجسده المتهالك على فراشه وكأنه خرقة بالية . . . وقد لا يعود إليه رشده ، إلا قبيل الشروق ، ساعة يلتف حوله أولاده الصغار ، يوقظونه ليتناول فطوره ، لا هناه الله بفطور !

وزوجه المسكينة قد أذاقها صنوف العذاب ، وجرعها كؤوس العلقم ، حتى باتت المفجوعة تبتهل إلى الله في كل ساعة

(١) ملحوظة : الأسماء المحصورة بأقواس غير خاضعة لقواعد اللغة .

من الأعلام التي أخذ عنها الاهواني . فتجزع أن كتابا في الفلسفة الاسلامية يفيض بهذه الأسماء ، وتسأل نفسك : أليس بين هذه الأعلام علم عربي واحد في ميدان هو في الحق حلية للتراث الفكري عند المسلمين . ولكن الجزع لا يطول بك : لأنك تصادف من مراجع البحث في المقدمة الجليلة للدكتور الأهواني مرجعا ثمينا باللغة الفرنسية للدكتور ابراهيم بيومي مدكور ، طبع في باريس سنة ١٩٣٤ . وعنوانه مترجما . (مكان الفارابي في المدرسة الفلسفية الاسلامية) .

هذه كلمة حق أخرى في تلخيص كتاب النفس لابن رشد الذي أخرجه الدكتور أحمد فؤاد الأهواني مع كتب أربعة أخرى تتصل بالنفس والعقل والاتصال والمعرفة . ومن حق كتبنا القديمة أن لا نستكثر عليها كلمة أو كلمتين في مجلة أو مجلتين . أو أن نمن على محققيها بأن أنهم من الصديق عباس خضر بأننا نتبادل الثناء ونتقارض الإهداء ، ونتقايض التعريف بآثارنا الأدبية . ولو اطلع « العباس » على كتابي « بين السطور » لرآني محاولا قدر جهدي أن انتصف للحق ممن أعرفهم ومن لا أعرفهم من الأدباء والباحثين ، الذين أتشرف بعرض أفكارهم ونقد آثارهم . وكدت لا أذكر هنا صداقة وعداوة ، لأن مراد النفوس الكبيرة أكبر من أن تتعادى فيه أو أن تنغص فيه القلوب ، بذكر بغيض وحبيب ...

محمد عبد الغني حسن

من ساعات يومها ، وتطلب منه ، اما أن يعيد زوجها إلى صوابه، وإما أن يميتها فينتهى فى الأرض عذابها !.. ودموعها ، ما كانت تجف لحظة من مآقيها !.. كيف لا تبكي ، وهذا زوجها لا يكاد يلتفت إليها أو يحسب حسابا لبيته ولأولاده ؟

كانت تخافه وتخشاه لما عرفت فيه من خشونة وقسوة ، ولكنها كثيراً ما كانت تضيق ذرعاً بأساها ، وينفد معين صبرها [illegible] فتلاقي من يده الفولاذية ضربات اللكمات ، وينزل على أم رأسها آلاف اللعنات !.. ولولا أنها كانت تنتهز فرصة سكره ، واستغراقه فى النوم ، فتمد يدها إلى جيوبه ، تبحث فى زواياها عما أفلت من يد الراقصات أو المومسات ، لما كانت تلقى ما تنفقه على أولادها وبيتها !

كانت الزوجة المسكينة تعانى كثيراً من العذاب والأسى والمرارة ، واشدة ما كانت تعانى جف اللبن فى ثديها وطفلها الثالث لا يزال رضيعاً ، فاضطرت إلى الاسراع فى فطامه وظل فى حاجة إلى اللبن ، وكان غذاؤه بسيطا يعوزه الكثير من العناصر التى تساعد على النمو ، فهزل جسده ، وذبل عوده ، ثم ما لبث ان لحقه السقام ، ولم يعد يكف عن الأنين والتوجع ... وكان كبد أمه يتفتت ، ونياط قلبها يتمزق، حين تسمع أنين ولدها وتعجز عن تخفيف الألم عنه ، وابعاد الأذى عن جسده النحيل وأبوه القاسى القلب ، لا يريد أن يعرف أن ولده يكاد يموت ، وأنه فى حاجة إلى الطبيب ؛ لأن ذلك يكلفه مالا ! فراحت المسكينة تحمل ولدها من عجوز إلى عجوز ، تطلب عندهن الدواء الرخيص والشفاء الكاذب !

وذات يوم كنت فى مقصورة جانبية فى أحد الملاهى ، فرأيته يدخل الملهى مع اثنين من زملائه الأشرار ، واتخذوا مجلسهم فى مقصورة مجاورة لى ، فكنت أسمعهم يتحدثون ، وأراهم يشربون ويعبثون ، حتى قفزت إلى المسرح راقصة فارسية راحت تبدى من فنها الرخيص ما يلهب الحواس وفى جسدها المكشوف ما يثير الشهوات ، فاذا صاحبنا كله عيون وكله آذان ، وإذا هو يبدى إعجابه بالراقصة ويعلن لزميليه رغبته فى مجالستها ، وفعلا ما كادت الفارسية تنتهى فى اداء (نمرتها) حتى أشار اليها أحد الصديقين اشارة فهمت معناها ، فاقبلت ضاحكة لاهية ، وجلست على ركبتى صاحبنا (أبو شوارب) فاذا هو يفرط نشوته ، يأمر بزجاجة كاملة من (الويسكى) يشهد الله أن سعرها لم يكن يقل يومئذ عن العشرين دينارا ان لم يزد !

قلت لنفسى وأنا أرقبها من بعيد : « يالها من خبيرة ! انها تعرف دخائل النفوس ، وتجيد قراءة الوجوه . لقد رأت رغبة الرجل ، وأحست بالنار المتأججة فيه ، فعرفت كيف ترضيه ، وكيف تسلبه محفظته المنتفخة بالدنانير .

كنت أرقبها خلسة ، فرأيتها تضع رأسها وشعرها وتدفن عطرها ودلالها فى صدر الرجل ، وتداعب بأناملها اللطيفة وجهه وتمرك بلطف أذنيه ، وسمعتها تتحدث اليه بالفارسية وقد رسمت على وجهها صورة صادقة التعبير لغرام عنيف وحب عظيم ، وسمعت أحد الصديقين يفسر (لأبو شوارب) كلمات المرأة الفارسية على أنها غزل وغرام عاصف به ، فانتشى (أبو شوارب) وانتفخت أوداجه ، وتراقصت على شفتيه شواربه ، وما كان منه إلا أن دس بين نهديها بورقة مالية ذات مائة دينار !

وفجأة .. رأيت صبياً صغيرا . اقترب من المقاصير وراح يتفرس فى وجوه الجالسين ، فلما وقعت عيناه على (أبو شوارب) اسرع اليه يصيح -- بابا ... بابا ... اسرع بربك ... إن أمى فى حاجة اليك .

ولكن بابا ساعتئذ كان فى عالم آخر ... قد أفقدته الخمرة شعوره ، وسلبته الفارسية وقاره ، فأخذها من يدها ومضى بها إلى مقصورة جانبية ليتم معها السهرة ، ولما سمع صوت ولده وهو يبكى ويولول هارباً لفظ من فمه كلمة سباب ثقيلة استأنست بها الراقصة الفارسية — فأطلقت هى الأخرى كلمة مقابلة اتبعتها بضحكة فاجرة وسارت مع صيدها الثمين .

ومع خيوط الفجر الحمراء ... عاد (أبو شوارب) إلى داره ولكنه ما كاد يقترب منه بضع خطوات ، حتى الفى الناس متجمهرين على بابه ، وسمع صراخ النسوة يتعالى من داخله ... فاطلق ضحكة طويلة ، وقال : مات ؟ ... الحمد لله .؟

وتابع سيره من غير أن يدخل الدار !

البصرة - عراق يوسف يعقوب حداد